سُوم

الجزء الأول والثانى - المجلد الرابع والثلاثون

١٩٧٨

القصور الأموية في عنجار[1] بلبنان

الدكتور حافظ شهاب

ترجمة وتعليق مظفر الشيخ قادر

عنجار[2] موقع اثري هام يحتل رقعة كبيرة تؤلف مجمعاً سكنيا كبيراً[3] . اهتمت به مديرية الآثار اللبنانية العامة منذ عام ١٩٣٨ بهيئات علمية أوفدت الى الموقع للقيام باعمال الحفر والتنقيب بجانب اجراء الصيانات المحدودة واللازمة لاعطاء الصبغة التاريخية للموقع ولابراز معالم شكلها بالحدود المسموح بها في الصيانة الاثرية العلمية والمدروسة[4] .

وجدير بالاشارة أن الامير موريس شهاب قد قام بمهمة رئاسة الهيئات التي عملت في الموقع لمدة تزيد على خمسة وعشرين عاماً . قدم من خلالها للعالم هذا الموقع الهام والمجهول كليا في الاوساط الاثرية حتى عام ١٩٣٨ . حيث اكتشفه لنا الاثاري Daniel Krencker وعرفنا بمعالم تخطيطه بشكل واضح[5] . تبينا من خلاله على تخطيط قصرين ومسجد كان الدليل للامير شهاب دفعته لأن يزيح في ضوئها معالم مجمع سكني هائل يحويه سور كبير طوله ٣٧٠ م وعرضه ٣١٠ م[6] يشكل مستطيلاً كبيراً يضم مساحة مقدارها ١١٤٧٠٠ م[7] .

اول من ارخ لنا هذا الموقع الهام هو العالم الاثاري الفرنسي Jean Sauvaget الذي نسبه الى العصر الاموي[8] . وجاء الامير شهاب ليقدمه للاوساط الاثارية بصورة كاملة غطى في ابحاثه تلك الجوانب التاريخية والاثارية على ضوء حفرياته[9] كما اودع مجاميع الكتابات المكتشفة في الموقع الى الانسة Solange Ory التي نشرت دراسة سريعة عنها في مجلة متحف بيروت ثم وسعت دراسة الموضوع فقدمته على شكل اطروحة الى المدرسة التطبيقية للدراسات العليا بجامعة السوربون بباريس[10] أما العناصر الزخرفية والمنحوتة في هذا الموقع فقد اودعت الى حافظ شهاب الذي قام بدراسة لها وقدمها الى جامعة هارفرد بالولايات المتحدة للحصول على الدكتوراه منها[11] .

فجاءت هذه الدراسة اشبه ماتكون بخلاصة لنتائج اعمال الحفريات والتنقيب والصيانة التي تمت في الموقع منذ عام ١٩٣٨ وحتى عام ١٩٧٥ توضحت لنا فيها كل المعالم المعمارية والفنية والتاريخية للموقع . وقد نشرلنا حافظ شهاب مقالة وافية وقيمة في مجلة اركيولوجيا بعددها المرقم ٨٧ والصادر في تشرين الأول من عام ١٩٧٥[12] . يمكن اعتبارها خلاصة لخلاصته التي قدمها كاطروحة الى هارفرد . ونحن بدورنا نقدم خلاصة لخلاصته هذه . راجين ان تكون عملا متواضعا يفيد منه زملاؤنا الاثاريون من ابناء الضاد ان تعذرت عليهم قراءته بالفرنسية .

لمحة تاريخية :

تقع عنجار في منطقة البقاع من لبنان . عند اعتاب جبال انتي لبنان وعلى الطريق الواصل بين حمص وبعلبك من جهة وطبرية وجبل لبنان حتى دمشق من الجهة الاخرى .

وقد ورد ذكر عنجار في كتب المؤرخين العرب[13] لتميزها كمحطة ترحال ولغزارة نهيراتها التي تغذي الليطاني . ورغم موقعها الحساس والهام هذا فان ماضيها الذي يسبق الاسلام ظل معتماً وغير معروف[14] .

قيل ان اسمها ورد على كتابةتعود لرمسيس الثالث أكتشفت في معبد مدينة هابو Habu بمصر . وقيل انها في موقع جرحا Gerrha الذي تكلم عنه المؤرخ الروماني بوليب Polybe حين حديثه عن الحرب التي جرت بين (أنتيوخ) الثالث حاكم سوريا و(بتوليمي) Ptolémée حاكم مصر في حدود عام ٢١٩ ق .م ثم يدعي من يدعي بأن عنجار (او عين الجار) مشتقة من كلمة جرحا المذكورة . ولكن الامير موريس شهاب والدكتور حافظ شهاب يؤكدان بأن هذا التخريج لايدعمه أي دليل آثاري يمكن الركون اليه . وما هوالا محض افتراض .

ونعرف مقاطعة ورد ذكرها في القرن الاول قبل الميلاد يقرب موقعها من عنجارنا الاموية كانت تسمى باد ليبانوم (Ad Libanum) تمييزا لها عن المقاطعات الأخرى في المنطقة وكانت (آد ليبانوم) هذه – كما يقول الدكتور حافظ شهاب– عاصمة للاسرة العربية الحاكمة المسماة بالايتورية (Ituréens) قبل أن يهبها مارك انطونيو الى كليوباترة ملكة مصر . ثم حكمت فيما بعد من قبل هيرود Hérode . كما وعاشت فيها العاهرة السامرية الشهيرة سالومي Salomé .

وفي نهاية القرن الأول للميلاد تختفي مقاطعة أدليبانوم من نصوصنا التأريخية ويبقى تاريخ عنجار لفترة ماقبل الاسلام مجرد حدس وتخمين لايدعمه الدليل الاثاري المؤكد .

ورغم هذه الحقيقة . نرى ان العناصر المعمارية في المجمع تحوى معالم أعمال تعود لعصور أقدم أعيد استعمالها في مباني عنجار الاموية . وهذه ظاهرة الفناها في دراسة عمارة أية فترة من فترات التاريخ الطويلة . فنرى بعض الاعمدة وتيجانها وهي تحمل معالم الفترة الرومانية . جاءت – من دون شك – من موقع روماني لايبعد كثيراً عن عنجار والارجح أنها جاءت من معبد يقع على بعد ٤ كيلومترات الى الجنوب الغربي من موقعنا والمسمى بمجدل عنجار [١٣] . ويعتقد كذلك بان بعض الكتابات الاغريقية التي عثر عليها وهي مكتوبة على احجار معاد استعمالها في المباني بالموقع . قد اتتنا من نفس المعبد . ونلاحظ أن أقدم الكتابات الاغريقية هذه تعود في تاريخها الى بداية القرن الثالث الميلادي .

ولنفس الاسباب التي جعلت تاريخ الموقع هذا غامضا في الفترة الرومانية . تعتبر عنجار غير معروفة أيضاً في الفترة المسيحية. فالادلة التي ترجعنا لهذه الفترة نادرة وصعبة التحديد . رغم أننا نرى بعض الاعمدة التي يمكن نسبتها لتلك الفترة بتحفظ .

ويمكن الاشارة باهتمام الى نص سرياني يعود الى نهاية القرن السادس للميلاد والذي يتضمن رداً لرجال الدين اليعاقبة على رجال الدين الاورثودوكس موقعا من قبل باذنوس . دياكونوس وارخيما ندريتا عين غارا وغيرهم كثيرون [١٤]

ولكن الدكتور حافظ شهاب يشير في مقالته الى أن (عين غارا) هذه ماهي الا اشارة الى (عين جارا) الاردنية أو (عين جارات) الواقعة الى الغرب من حلب . أما الامير موريس شهاب . مستندا على تطابق موقعي دوربيل Durbel وطربول Terboul على قرية تقع على مسافة قريبة الى الشمال الشرقي من عنجار . يرى ان (عين غارا) التي يفترض انها كانت تحوي كنيسة يمكن العثور عليها في منطقة عنجار .

وباختصار يمكن التأكيد على أن الموقع لم يسكن بشكل يلفت الانتباه الا في الفترة الاسلامية الاولى . حيث نرى ورود اسمها مراراً في المصادر السريانية والعربية اذ تقرأ في مصدر تاريخي سرياني مجهول الأسم ومؤرخ في عام ٨١٩ للميلاد [١٥] أن الخليفة الوليد الاول قد أسس مدينة وسماها (عين غارا) والتي يقترح حافظ شهاب من خلالها أن المدينة قد شيدت في تاريخ يسبق عام ٧١٥ الذي توفي فيه الوليد » [١٦] . أما عبارة وسماها عين غارا » فيستخلص منها أنها لم تكن لتعرف بهذا الأسم قبل الوليد الاول. والتسمية تذكرنا بتقليد أموي مألوف في تسمية المواقع فكما عنت (عين جارا) موقع مياه غزيرة كذلك نرى اشتقاق مدينة (الرملة) من الرمل و (واسط) من التوسط بين الكوفة والبصرة . وجدير بالاشارة الى أن هذا المصدر السرياني هو الوحيد الذي يسمي لنا هذا المجمع السكني بمدينة وينسب بناءه الى الوليد الأول[١٧].

ويؤكد حافظ شهاب هذه الاشارة التاريخية بالاستناد الى مايقرؤه في كتاب التاريخ لثيوفان المخطوط بين الاعوام ٨١٠و٨١٤م حيث يرد فيه : أن .. « العباس . ابن الخليفة الوليد الأول. أثناء حملة له في أرض الروم بحدود عام ٧٠٩ م أسر الكثير من الرجال وبنى بهم (عين الجار) في مقاطعة هيليوبوليس (بعلبك).[١٨]

وتشير وثيقة أخرى ادبية مقتبسة من وثائق افروديتو بمصر العليا ومؤرخة في ١٥ آذار عام ٧١٥م [١٩] ،الى أن عمالا من الاقباط قد استخدموا في بناء عنجار وعادوا الى بابيلون (بابل).[٢٠]

ويمكن التصريح بشكل مؤكد على أن سور المجمع السكني لعنجار كان قائما عام ٧٤١ م . لأن كتابة عربية تحمل هذا التاريخ قد اكتشفت في مكان يقع بين البرجين الرابع والخامس . لوعددنا الابراج ابتداءا من الزاوية الجنوبية الغربية من السور نفسه.[٢١]

وان اردنا الاحداث التي جرت في مدينة أو مجمع عنجار. نلاحظ الحدث الذي نال اهتمام المؤرخين بافراط كان المعركة التي دارت عام ٧٤٤ م بين مروان بن محمد وسليمان بن هشام والتي سقط الخليفة ابراهيم على أثرها وحل محله مروان بن محمد .

فقد حدثنا باسهاب عن هذه الاحداث الطبري (٨٣٩–٩٢٣) [٢٢] . ولكن . كما يقول الدكتور حافظ شهاب . الوصف

الشافي لهذه الاحداث يرد عند المؤرخ الأرميني غيفوند Ghevond (من القرن العاشر) . وللأسف لانجد أية اشارة عند هؤلاء المؤرخين . للمجمع السكني المسور الذي يهمنا في هذا الحديث .

يبدو أن مجمع عنجار ظل مسكوناً حتى القرن الثاني عشر للميلاد . وتشير اسطورة ترجع الى القرن التاسع للميلاد الى ان سفينة نوح قد اقلعت منها [٢٣] .

كما وتشير لنا المصادر [٢٤] الى ان سيف الدولة قد توقف عندها في عام ٩٤٥ م وسماها حصنا عسكريا في خطابه التحذيري الذي وجهه الى سكان دمشق . وفي عام ١١١٥ م جعل منها الكونت الصليبي بون Pons قاعدة لعملياته العسكرية في منطقة البقاع والتي انتصر فيها عليه القائد الأتابكي توغتلين . وفي عام ١١٧٨ م دحر فيها الصليبيون بقيادة الملك بودوين الرابع شمس الدولة توران شاه . شقيق صلاح الدين . وبسنوات بعد هذا الحدث (في عام ١١٨٥ م) يقابل فيها صلاح الدين الامير الارطقي نورالدين بن قره ارسلان حاكم ديار بكر ويمر بها ثانية عام ١١٩٢ بعد أن يكون قد استقبل في بيروت بوهيموند Bohemond الثالث أمير انطاكية الصليبي . والغريب أن أياً من هذه الاخبار لايشير الى المجمع السكني أو أي من قصوره . وننتظر حتى عام ١٣٢١ م حيث يشير لنا ابو الفدا [٢٥] الى رؤيته في عين الجار اطلالا واسعة . أما سوفاجي [٢٦] فيشير الى تطابق ما ورد في مصادر القرون الوسطى [٢٧] عن حصن مجدل [٢٨] .

وبعد قليل من انتهاء الحرب العالمية الثانية نرى ان مجموعة كبيرة من الأرمن يحطون الرحال بالقرب من اطلال عنجارنا هذه وما زالوا مقيمين فيها حتى اليوم .

وصف الاطلال : [٢٩]

المجمع السكني في عنجار محاط كله بسور ذي أبراج ابعاده ٣٧٠ × ٣١٠ م [٣٠] يشكل مستطيلا بنائيا مساحته ١١٤٧٠٠ م٢ . (انظر شكل-١-) يتجه كل ضلع من أضلاعه الاربعة بشكل موازٍ للجهات الجغرافية الاربع . ويتوسط كل ضلع منها باب رئيس على جانبية برجان نصف دائريين يبرزان قليلا عن مستوى جدار السور . أما الأبراج الاربعة في اركان السور فهي أبراج دائرية تشكل ثلاثة ارباع الدائرة الكاملة خالية من اللب . كما ان هناك (٢٨) برجاً نصف دائري موزعة على امتداد السور بابعاد متساوية تستند على امتداد السور . وبهذا يكون مجموع الأبراج المزينة للسور كله أربعين برجا [٣١] . متوسط سمك جدران السور يبلغ مترين تقريبا . وهناك سلالم تسهل الصعود الى سطح السور من الاركان الاربعة وعند الابواب . الوجه الخارجي للسور مبني باحجار كبيرة ومهندمة ابعادها ٥٠ × ٦٠ سم . أما الوجه الداخلي له فهو مبني بأحجار احجامها أقل مما في الوجه الخارجي . أما ما بين هذين الوجهين فمملوء بمزيج من الحجارة والجص . عثر على قطع مزخرفة مأخوذة من مبان رومانية في حشو جدار السور [٣٢] ونلاحظ أن اعلى نقطة ما زالت قائمة من جدار السور هي المحصورة عند البرج الشرقي المحيط بالباب الشمالي ويبلغ ارتفاعها ٧.٠٣ م . كما ان الأبواب الاربعة تؤدي في داخل السور الى شارعين متعامدين في مركز المجمع وهما محفوفان برواقين على جانبي الطريق (يذكراننا بما موجود من اروقة في مداخل بغداد المدورة) [٣٣] . ويشكلان عند التقاطع مربع التترابيل Tétrapyle (الصورة) [٣٤] .

الاروقة مزينة بأعمدة ودعامات تحمل اقواسا نصف دائرية . كما ونلاحظ وجود دخلات عمقها يبلغ خمسة أمتار بين مسافات معينة من هذه الاروقة المحفة بالشارعين المتعامدين . ونرى كذلك مصارف لمياه الأوساخ والأمطار تحت تبليط هذين الشارعين تؤدي في النهاية الى خارج سور المجمع السكني . كما وان آثار القنوات التي توصل تصريف مياه المباني المختلفة داخل السور الى القناتين الرئيسيتين الواردتي الذكر . قد اكتشفت تحت مستوى الشوارع في المجمع . (الشكل-١-رقم ٦ . ٧) .

ان نقطة المركز للمجمع السكني الذي يتقاطع عندها الشارعان المركزيان يؤلفان مربعا تقوم عند زواياه الأربع نصب يتألف كل منها من تترابيل مكون من اربعة أعمدة تحمل تيجانا تعود الى القرن الثاني او الثالث للميلاد . (الشكل-١-رقم ٨) .

ويمكننا تصور الاقسام الاربعة التي يتكون منها المجمع والذي يفصلها عن البعض الشارعان المتقاطعان . حيث نرى القسم الأهم منها في الجزء الجنوبي الشرقي (شكل-٢-) الذي يضم قصرا من اكبر قصور المجمع ومسجدا يقع في شمال القصر ذاته ويرتبط بالقصر عن طريق بابين تفصلهما طريق محدودة السعة . أما بقية المساحة لهذا القسم فلم يعثر فيها حتى اليوم على مبانٍ أخرى باستثناء الخلايا البنائية التي تحيط برواق الشارعين الرئيسيين .

المدخل الرئيسي للقصر رقم (١) يؤدي الى وسط الجزء الجنوبي من الشارع الممتد من الشمال نحو الجنوب . (شكل-٢-) .

أما عن اسلوب البناء في القصر رقم (١) فنرى ان جدرانه الخارجية مبنية باحجار كبيرة الحجم وذات لون بني مهندمة بشكل جميل يبلغ ارتفاع الواحدة منها (٥٠ سم). البناء بمجوعه يستقر على اسس مبنية بالحجر المائل الى البياض تتبدل كل خمسة عشر صفا من الاحجار لتصبح حجرا ذي لون بني باستثناء المسجد الذي نرى حجره ذا لون موحد .

ابعاد القصر رقم (١) هي ٦٠ × ٧٠ م وهو لا يتصل في أي ركن من اركانه بالمباني الأخرى وهو محاط بطريق عرضه ثلاثة

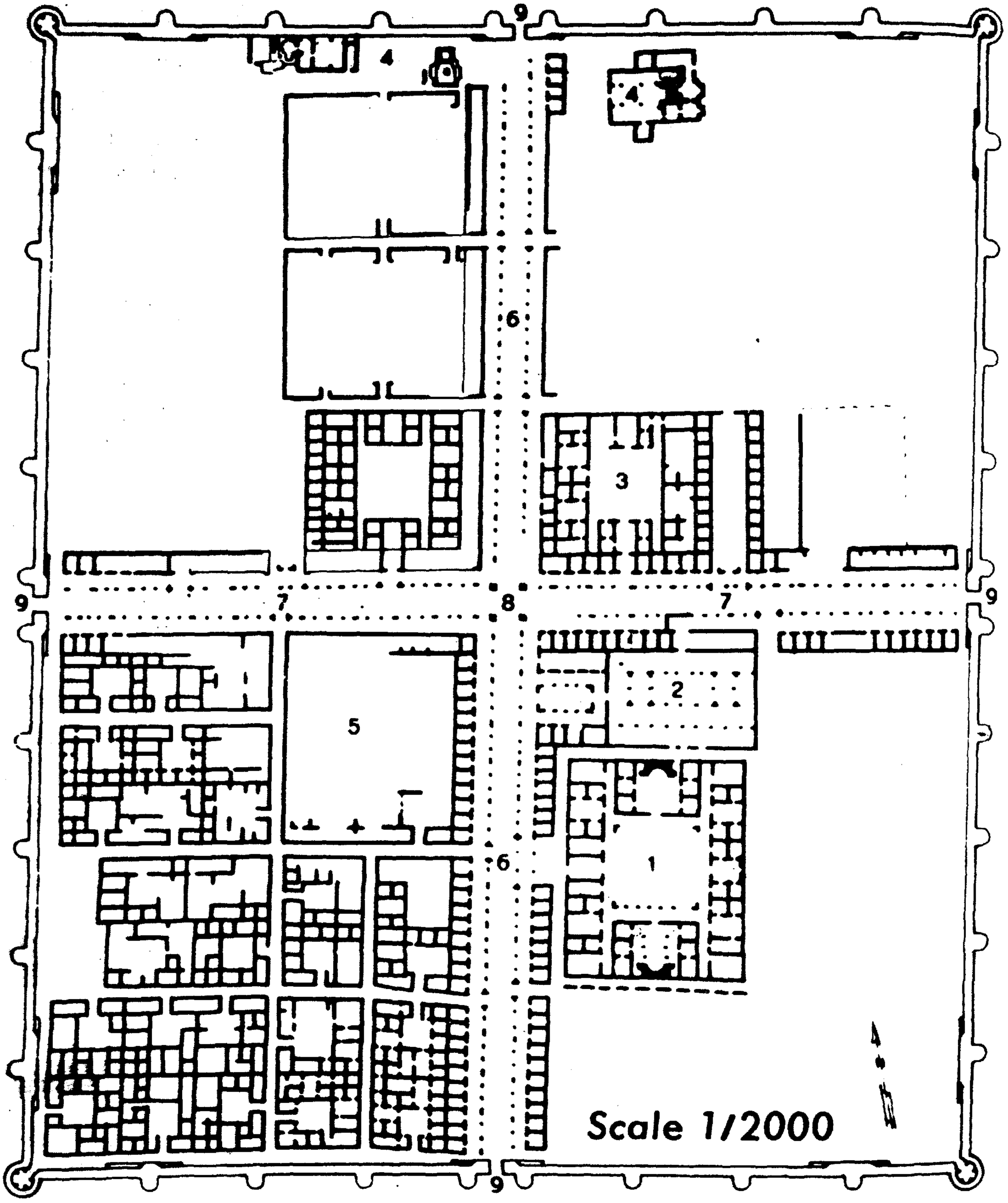

شكل ١ - مخطط كامل لأطلال عنجار عن مجلة ARCHEOLOGIA ١٩٧٥

أمتار من الجهات الشمالية والغربية والجنوبية . مدخله الرئيسي مزين من الخارج بدعامتين مزخرفتين بالعناصر النباتية ويؤدي الممر الآتي من المدخل الى باحة شبه مربعة أبعادها ٣٣ × ٣٢ م وينتهي الممر المذكور على جانبيه بمجموعتين زخرفيتين مؤلفتين من قواعد اعمدة وأنصاف أعمدة مع تيجانها ذات العناصر الشريطية وهي تحمل حنيات فيها عناصر زخرفية بارزة . ونجد واحدة منها فقط كاملة المعالم . كما ونلاحظ وجود وحدات ذات خمسة مرافق وهي مجاميع كل واحدة منها تشكل ما نسميه بالبيت داخل القصر [٣٥] تفتح أبوابها على الساحة في وسط القصر . ويمكن الاشارة الى أن هذه الوحدات السكنية أو البيوت لها موازياتها في قصور أموية عديدة أخرى مثل المشتى وقصر الحير الغربي وقصر الطوبة [٣٦] .

أما الطرفان الشمالي والجنوبي من ساحة القصر فتلتصق بهما وحدتان بنائيتان متميزتان منفتحتان بدورهما على الساحة الرئيسة للقصر بباب واحدة لكل منها . ونلاحظ احتواء كل من الوحدتين على صالة باسيليكية الشكل على جانبيها خلايا بنائية متراصة مؤلفة من ثلاث غرف لكل جانب . وقد اعادت أعمال الصيانة في الواجهة الجنوبية من داخل القصر المعالم الرئيسة لهذا الضلع . ونلاحظ افريزا من الاعمدة التي تحمل اقواسا تشكل جداراً يحمل فوقه على مستوى يتجاوز الابواب والشبابيك . أما أسلوب البناء في هذا الجزء فيتصف بكونه مركبا بشكل تتوالى فيه صفوف الحجر مع ثلاثة صفوف من الطابوق وهي تشبه في هذا المجال جدران الخلايا التي تحيط بالرواق المطل على الشارعين الرئيسين . وقد تم اكتشاف مجاميع كبيرة من القطع الحجرية المزخرفة بعناصر زخرفية متباينة بالاضافة الى الاعمدة والتيجان وذلك أثناء الحفريات التي تمت في القصر رقم (١) من المجمع .

ومما يلفت الانتباه وجود باب الى شرق الصالة البازيليكية الشمالية وهي تواجه تماماً باباً ثانوية من أبواب المسجد المقابل . أما الباب الرئيسة للمسجد هذا فهي تفتح على الجزء الجنوبي من الشارع الممتد من الشمال الى الجنوب في المجمع . ونلاحظ ان هذا المدخل مبني بشكل متميز بعناصره المعمارية والزخرفية ليعطي هيبة لواجهة المسجد وهو يتألف من ايوان عميق يزين جوانبه الاربعة صف من الاعمدة التي تحمل الاقواس على امتداد الايوان والتي تليها على الجانبين خمس خلايا بنائية متناظرة مع تلك الخلايا التي تلي الاروقة الممتدة على جانبي الشارعين الرئيسين. [٣٧]

أما بناء المسجد رقم -٢- من شكل -٢- وجدرانه واعمدته ومعالمه الأخرى فنراها قد ابيدت تماماً ولم تبق من معالمه غير المخطط . ورغم ذلك فما زلنا نرى بقايا احجار اسس جدران محفوظة تعادل خمسي بناء المسجد بالاضافة الى صف من قواعد أعمدة تدلل على أن هذا الجزء من المسجد كان مسقفاً . وجدار القبلة في المسجد مازال يحفظ لنا معالم حنية المحراب الذي يطلع من الخارج بمقدار (١٢٨ سم) على الشارع الذي يفصل المسجد عن القصر . وللأسف ان معالم تخطيط هذا المسجد على الارض مازالت غامضة بالنسبة للمنقبين وذلك لأن معظم جدرانه قد اقتلعت حتى مستوى الارضية باستثناء بقايا احجار صغيرة لاتدل على أي معلم من معالم المسجد الذي يفترض أن يكون بناؤه بمستوى مواد البناء في القصور والمرافق الأخرى من المجمع هذا ان لم تكن من افضلها . وجدير بالاشارة أن باب المسجد ليس واقعا على المحور الأساسي لبناء المسجد والمار بساجته وان دققنا في بناء المسجد نراه من الطراز البازيليكي حيث الباب الغربية تقع على المحور الافقي (العرضي) للبناء بمجموعه . ولا نرى أي أثر لمبنى الرواق الشمالي. كما وقد اكتشف خزان ماء كبير لتمويل المجمع السكني كله بالماء اللازم . وموقعه متوسط من المباني الرئيسية .

ولو انتقلنا الى المستطيل الواقع في الربع الشمالي الشرقي من المجمع (انظر شكل -٤-) لوجدنا أنه يحوي قصراً رقم (٣) آخر لم يكمل بناؤه بعد . ويحوي كذلك حماماً (رقم ٤) وصفين من الخلايا يحوي كل منهما عشر غرف وهي بحجم نفس خلايا الشوارع الرئيسية . والمساحة المتبقية من هذا المستطيل أرض خالية البناء .

القصر الذي يحويه هذا المستطيل (شكل-٤-رقم (٣)) . يشغل مساحة أقل من مساحة القصر رقم (١) فأبعاده٤٧ × ٤٨ م والخلايا البنائية تحف باضلاعه الشرقية والجنوبية والغربية من الداخل ويطل مدخل هذا القصر على الشارع الرئيسي الممتد من الشرق نحو الغرب . ويلاحظ ان مستوى ارضية هذا القصر (رقم ٣) هو اوطأ من مستوى تبليط الشارع العام المذكور .

مدخل القصر تحف به دعامتان مزينتان بالعناصر الزخرفية . يمر الداخل من المدخل بكلوريدور يوصله الى ساحة القصر المربعة ذات الابعاد ٢٣ × ٢٣ م . حيث نرى في الجهة الثانية منها في الطرف المقابل للمدخل المذكور بيتا . والبيت هذا يتميز بجمال بنائه وتناسقه . اذ نرى مدخله محفوظا على جانبيه بقاعدتي عمود يجلس عليهما عمودان يتوجهما تاجان مرمريان مزخرفان باشكال غاية في الجمال . حيث نرى كل زوج من الاعمدة يحمل كوة تنتهي بنصف قبة صدفية الشكل فوقها صقر يحف به اسدان على الجانبين ساحة هذا البيت مبلطة بالطابوق الفرشي . وجداره الداخلي مبني بحجارة مهندمة وبصفوف متتالية من الطابوق والحجر الأبيض والبني مما يعطي منظراً أخاذا للواجهة . الغرف الجانبية مبنية بحجارة مهندمة ايضا ولكنها اقل حجما من احجار

القصر وبشكل تتوالى فيه صفوف الحجر والطابوق .

ونلاحظ وجود بيوت أخرى على جانبي ساحة القصر (٣) حيث نجد جدرانها مبنية بالحجارة المهندمة الكبيرة ولكن لا تتخللها صفوف الطابوق كما في البيت المقابل لمدخل القصر .

ونلاحظ ايضا غزارة العناصر الزخرفية في هذا المبنى وكذلك العقود المحددة بحواف وافاريز بارزة كما في القصر رقم (١) ولكنها تختلف من حيث التفاصيل الزخرفية ويتميز هذا القصر (رقم ٣) ايضا بغزارة في الاشرطة المزخرفة التي تزين قواعد وتيجان الأعمدة ونلاحظ على احد التيجان نحتا بارزا يمثل نساء عاريات بين اوراق الاكانتس .

ومن خلال دراسة الدلائل المعمارية في الموقع يتبين ان القصر رقم (٣) كان معاصرا في زمن البناء للقصر الأول (رقم ١) ولكن الديكور والزخرف في كلا القصرين قد تم تنفيذهما من قبل فرق معمارية وفنية مختلفة تركت آثارها الفنية المتباينة من خلال الاعمال التي انجزتها في كلا القصرين .

أما البناء الذي نرى آثار أسسه فقط شرق القصر رقم (٣) وهي عبارة عن احجار ضاربة الى البياض ومهندمة بشكل مستعجل وغير دقيق كما في أسس القصرين رقم (١) و(٣) . ونرى كذلك معالم باحة القصر المزمع انشاؤه على هذا المخطط وهي مستطيلة لم يراع فيها التناظر الملاحظ في القصرين (١) و(٣) . أما في الشمال من هذا المستطيل الشمالي الشرقي فنلاحظ وجود بناء لحمام (رقم ٤) ارضيته مبلطة بالمرمر والموزائيك [٣٨] . ولو انتقلنا الى المستطيل الشمالي الغربي من المجمع السكني لعنجار والذي ما زالت اعمال الحفر والتنقيب مستمرة فيه لغرض اظهار معالمه كاملة . فقد أظهرت الأعمال التي تمت فيه لحد الآن اسس مبنى يشبه في تخطيطه القصر رقم (٣) . ولكنه لم يرتفع بجدرانه اكثر من الأسس المذكورة والتي حدد بموجبها مخططه وجدير بالاشارة الى ان هذا القصر المقترح يحوي ملحقا كالذي وجدناه في جناح القصر رقم (٣) من الجهة الشرقية والمؤلف من الخلايا البنائية العشر .

وعثر على بئر ينزل اليه بسلم في الشمال من المستطيل الشمالي الغربي هذا .

ولكن البناء الوحيد الذي اظهرت معالمه البنائية كاملة في هذا المستطيل الشمالي الغربي فهو عبارة عن حمام صغير اما المتبقي من مساحة المستطيل هذا فما زالت الاعمال في طريقها لاظهار معالم ماتبقى من المباني المخفية تحت التراب .

والمستطيل الجنوبي الغربي (الرابع) (شكل-٥-) . والذي اظهرت الحفريات قسما من معالم مبانيه فيحوي مجموعة مزدحمة من بيوت السكن ذات الابعاد المحدودة . الا ان مبنى يقع في الركن الشمالي الشرقي من هذا المستطيل الجنوبي الغربي تتوسطه ساحة كبرى . يعتقد انه (خان) لاستقبال القوافل التي تحط الرحال في مجمع عنجار .

بقي ان نتساءل اخيراً .. هل ان عين الجار هذه كانت مدينة . كما كتب المؤلف المجهول في تاريخ السرياني عام ٨١٩ م وكما يوحيه لنا ذلك المجمع السكني الضخم ؟

ام يحق لنا اعتباره دار الامارة التقليدي منذ فجر الاسلام وبداية العهد الأموي . كما يوحيه لنا مخطط القصر رقم (١) . مع مايرتبط بها من قصور أخرى ومسجد واحياء سكنية وأسواق وحمامات ؟ وفي كل الاحوال يجب استبعاد مايقال احيانا عن كون مجمع عنجار هو عبارة عن معسكر بني على طراز المعسكرات القديمة المعروفة عند الرومان (كما يذكرلنا الدكتور حافظ شهاب) .

وأخيراً علينا نحن آثاريو الوطن العربي والمكلفون تاريخيا بدراسة وتحليل خط سير حضارتنا التي ظل زمام متابعتها بيد غيرنا . ان نستعرض بروح علمية وموضوعية علاقة هذا المجمع السكني الأموي الرائع بمبان ومدن عربية اخرى نشأت في العصر الاموي مثل قصر الحير الشرقي ومدينة الرملة التي أسسها الخليفة سليمان . أخ الخليفة الوليد الأول . فضلا عن المدن الاموية التي نشأت في العراق مثل البصرة والكوفة وواسط وتتاتى- في تقديرنا -أهمية هذه المقارنة المقترحة من معرفتنا بأن المعمار الأموي كان يخطط اولا الشكل العام المقترح لمدينته أو مجمعه السكني أو قصره أو حصنه قبل البدء بوضع اي حجر فيه وهذا مايطابق ما اكتشفه المنقب الرئيسي في عنجار الامير موريس شهاب منذ عام ١٩٣٨ .

بقي أن نذكر ان الخلفاء الامويين الأوائل كانوا يؤثرون بطبعهم حياة البادية ولم يتعودوا على المناخ الشتوي الرطب في مدن بلاد الشام لذلك أخذوا يقضون أشهر الشتاء والربيع في الهواء الجاف في أطراف الصحراء . وفي بادىء الأمر كان الخليفة يكتفي بضرب الخيام في البادية حتى استرعت انظارهم بعض خرائب الرومان على تخوم تلك البادية وعلى طرق القوافل فبدأوا اولا بترميم بعضها-كما فعل يزيد بن عبدالملك بقصر الموقر وجعله مركز قصور البلقاء التي يتنقل بينها في صيده ولهوه مع الشعراء والمغنين والموسيقيين . ثم جاء دور بناء القصور الفخمة كما حصل في قصر الطوبة والمشتى وخربة المنية وخربة المفجر والحرانة وعمر هشام الرصافة على الفرات وتوالت القصور موزعة في اركان عديدة من البادية حتى أصبحت عامرة .

وما ينتظر اثاريينا هو العمل على ربط المادة الاثرية الجافة بما لها من علاقة بالتاريخ في محاولة لاكسابها الربط والحيوية والاستمراء ثم الوصول الى استنتاج يضيف جديدا الى مجال دراسة تاريخ العمارة الاسلامية .

شكل -٢-
المستطيل الشمالي الغربي من اطلال عجار

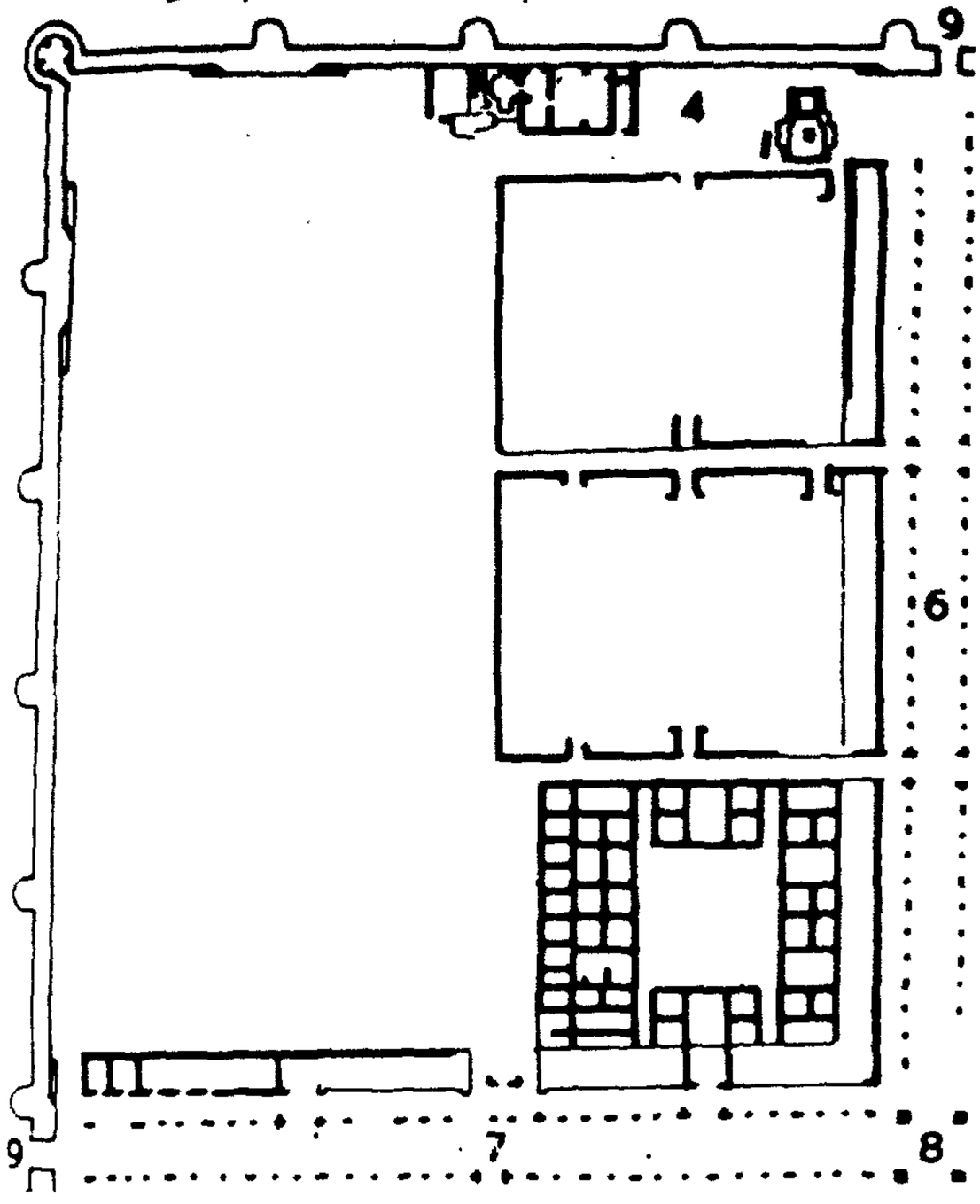

شكل -٣- المستطيل الجنوبي الغربي من اطلال عجار

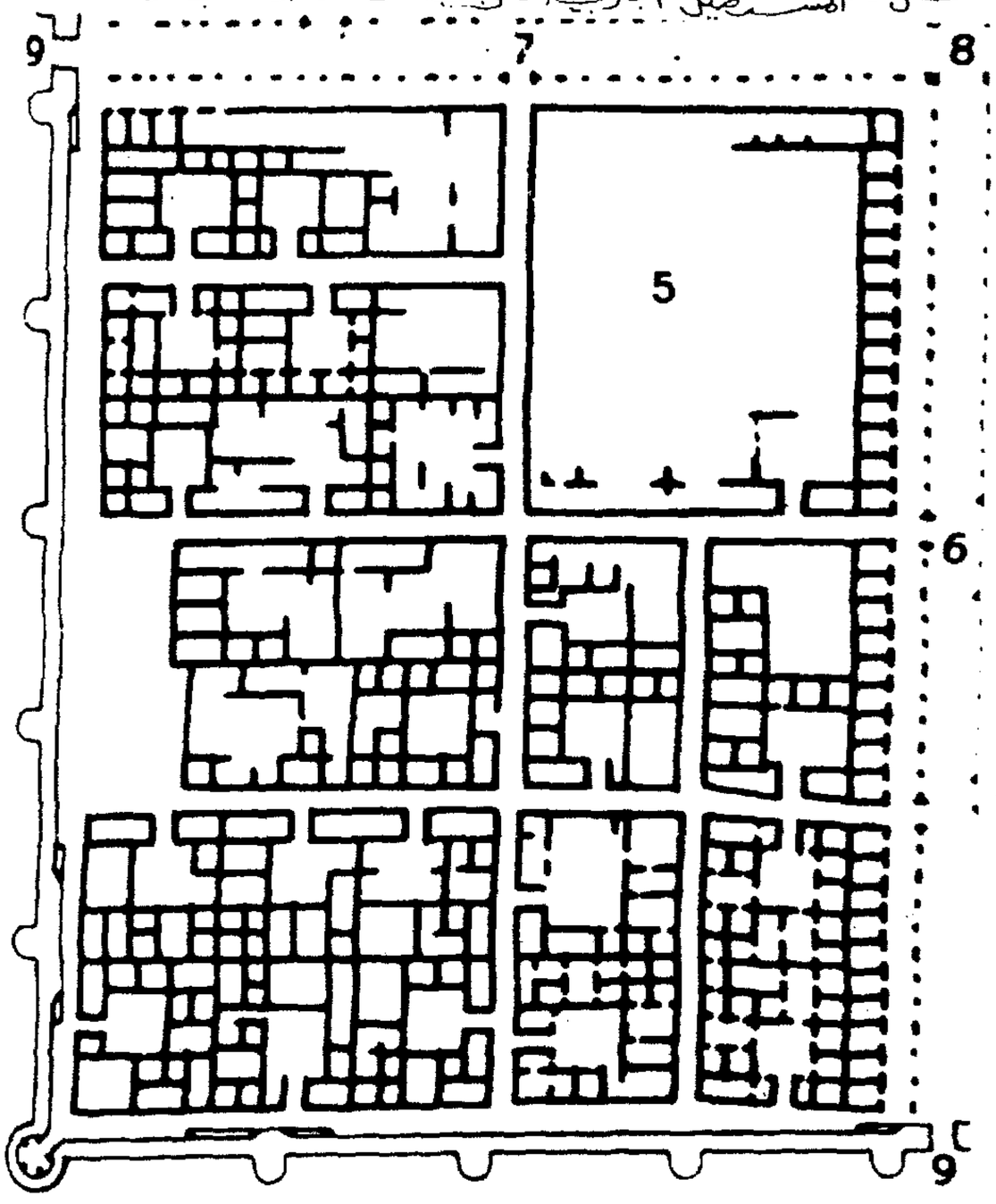

شكل -٤- المستطيل الشمالي الشرقي من اطلال عجار

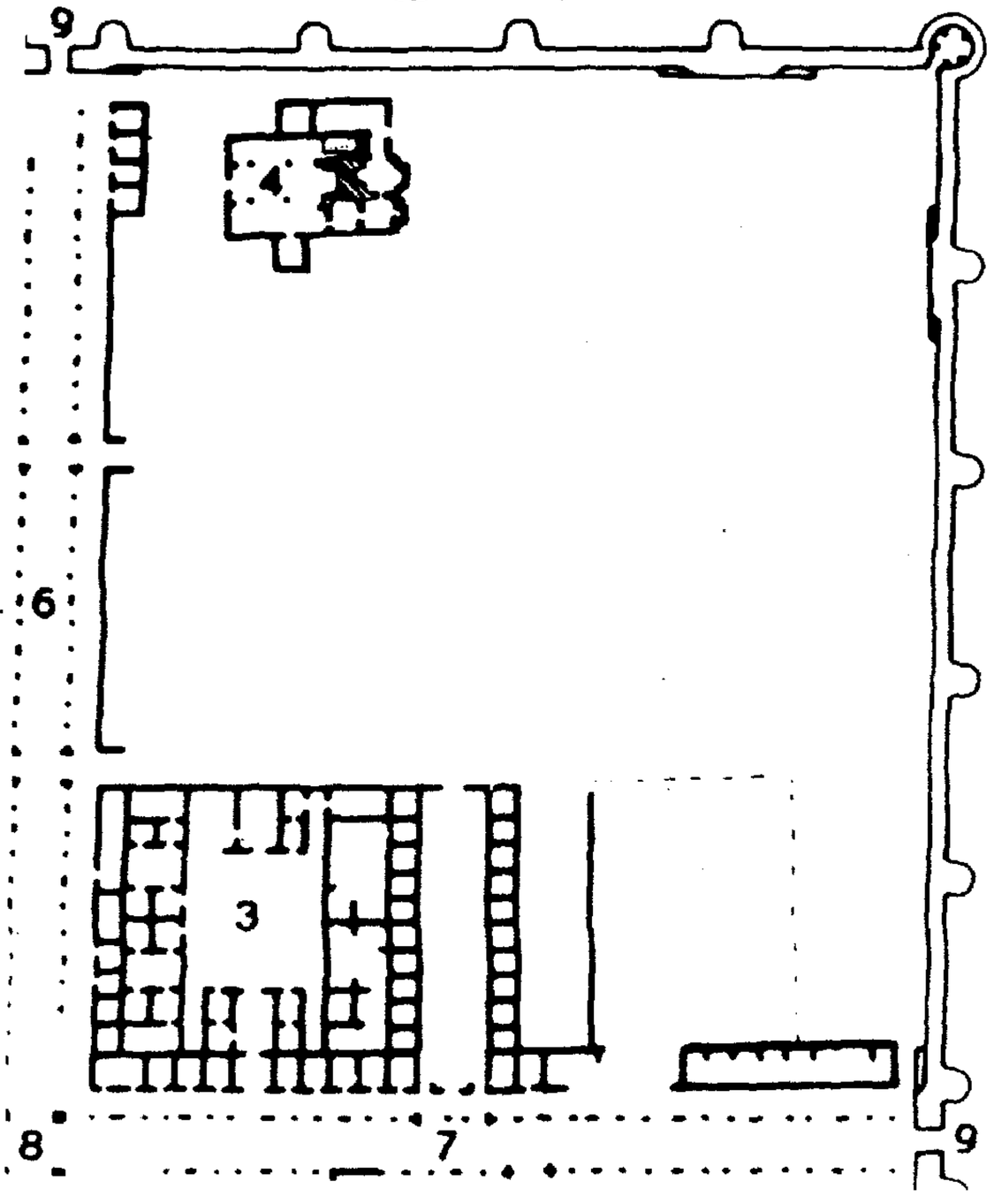

شكل -٥-
المستطيل الجنوبي الشرقي من اطلال عجار

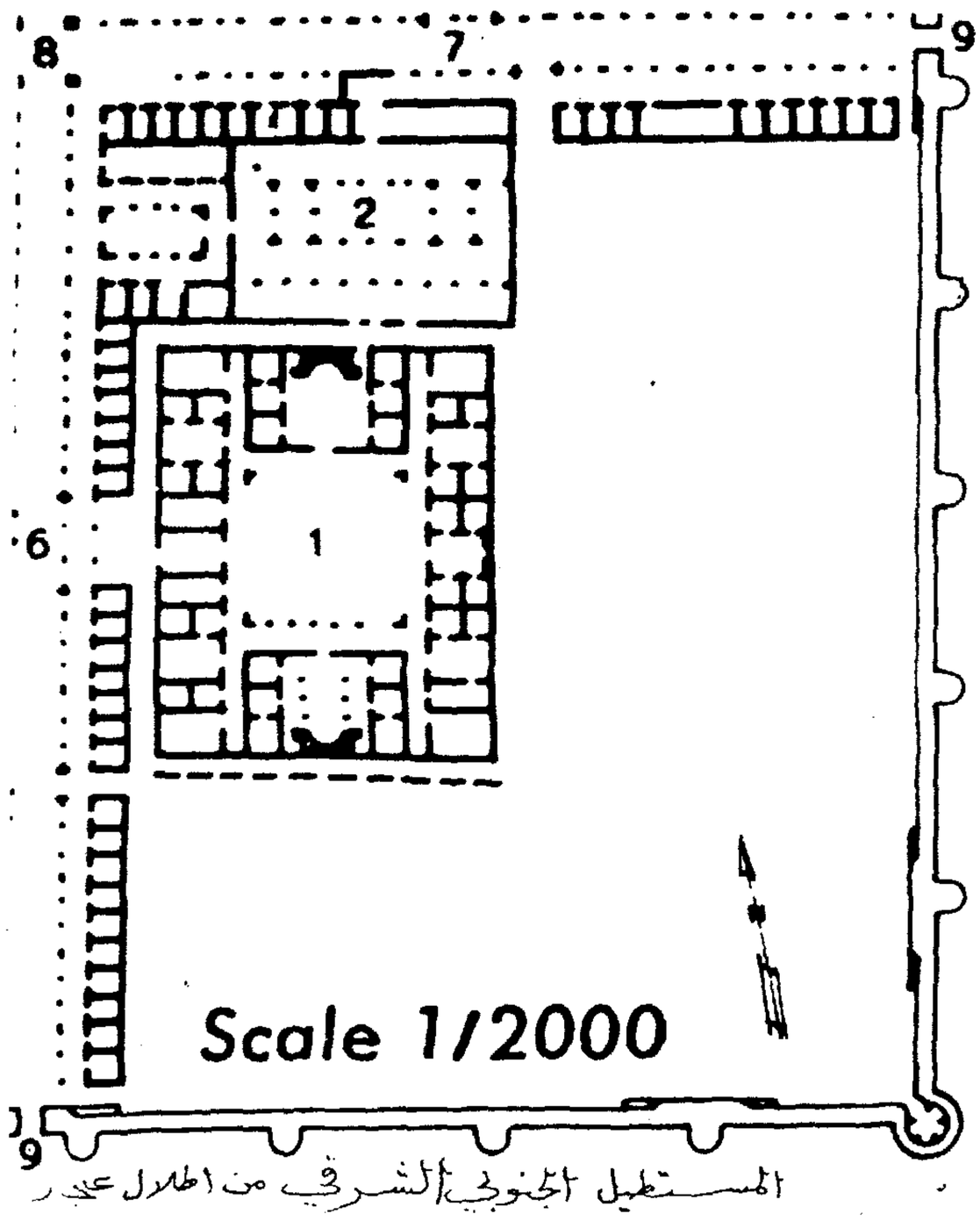

الهوامش :

١ – ان جميع الاشارات والتعليقات الواردة في الهوامش ادناه . هي من جمع وتصنيف وتحليل المترجم . علماً بأن موضوع المقالة كان قد عرض في محاضرة قدمناها في قاعة ساطع الحصري بمكتبة المتحف العراقي .

٢ – ويسميها ياقوت « عين الجبل » . انظر معجمه . ج ٣ ص ٧٦١ .

٣ – يذكر سوفاجي . في محاضرة القاها امام اكاديمية البحوث والآداب الفرنسية في ١٢ كانون الثاني ١٩٤٠ (نشرت في كانون الاول ١٩٣٩ في مجلة متحف بيروت ج٣) : « ... اننا نرى في اطلال عنجار تشابها مع السور القريب من قصر الحير الغربي . وهو مزين بابراج يشكل جداراً مربعاً أبعاده ١٧٥ م . وفي وسط كل ضلع من هذه الاضلاع باب تقع على نهايات المحاور التي تتقاطع في مركز الاطلال وتقسمها الى اربعة مجاميع بنائية متساوية المساحة ومختلفة التفاصيل . والاطلال في وضع مترد من الخراب والدمار » .

ويذكرنا الرقم الذي اعطاه سوفاجي لطول ضلع سور عنجار بطول سور حصن الاخيضر بالعراق والبالغ ١٧٥م .

٤ – نرجو ان تستفيد كوادرنا العاملة في مجال الصيانة الأثرية من هذا النموذج الجيد في الصيانة المدروسة .

٥ – ولدينا بيرسن M.H. PEARSON أيضا الذي أعاد دراسة الاطلال من الداخل والذي قدم لنا على ضوئها مخططاً تقريبياً لما تتضمنه تلك الاطلال بالشكل العام (مجلة متحف بيروت ج ٣ شكل ١ ص ٧) .

٦ – انظر المخطط رقم – ١ – حيث انه يعتبر آخر واكمل مخطط تحقق على ضوء الحفريات التي تمت في الموقع الى يومنا هذا

٧ – J. SAUVAGET, B.M.B. III, p.10 (dec. 1939).

٨ – يشير موريس شهاب الى ان الحفريات التي قام بها قد اثبتت تاريخ وحدود صحة رأي سوفاجي في نسبة الاطلال الى العهد الاموي اذ تقول

.."The excavations which I under took there with the collaboration of M.G. Simson have strengthened my conviction that sauvaget was right. Apart from some capitales (which have been re-used). and some shafts of columns. and two or three fragments of Roman inscriptions are re-used material and one Byzantine fragment no pre-Umayyad vestige was found despite many excavating campaigns. during which we often struck virgin soil . . " .

١٨– وقد زاملتها اثناء عملها هذا . حيث كنا ندرس على يد الاستاذة جانين تومين – سورديل معاً . والاخيرة درست على يد الاستاذ الراحل سوفاجي .

٩ – لم نتمكن – للأسف – الحصول عليها في مكتباتنا لاعطاء فكرة كاملة عن موضوع الاطروحة .

١٠ – ARCHEOLOGIA. TRESORS DES AGES. REVUE Mensuelle.octolre. 1975, No. 87, Paris, pp. 18-24 .

١١ – انظر : المقدسي / احسن التقاسيم .. ص ١٩١ . قدامة / كتاب الخراج ج ٦ ص ١٦٦ . ٢١٩ . ياقوت / معجم البلدان تحت مادة « عين جارا » .

١٢ – يذكر سوفاجي في محاضرته (هامش –٣–) : « ان الآثاريين الذين فحصوا الاطلال نسبوها الى العصر السلوقي – ولا ندري من يقصد منهم – ولكنه يرى ان مثل هذا الرأي ينقصه الدليل والحجة . ويقول : انه لايمكن نسبتها حتى الى العصر الروماني لاننا نعرف طريقة البناء السلوقية والرومانية وهذه لاتشبه أية منهما اطلاقاً . وعليه يرى انه لايصح نسبتها الى تاريخ اقدم من نهاية العصر البيزنطي . فضلاً عن ان الموقع الجغرافي والستراتيجي لايبرران وجود مثل هذه القصور المسورة في العهود السابقة للاسلام .

١٣ – وللتحديد فان المعبد الروماني هذا يقع على مسافة ٣.٥ كم الى الشمال من اطلالنا وهو يطل على قرية مجدل . انظر :

KRENCKER U. Zschietschmaun, Römische Tempel in Syrien, Berlin 1938. pp. 182-191; Ars Orientalis, Vol. V,p. 17.

١٤ – ولدينا مايذكره ثيوفان THEOPHANE في تاريخه وما يرد في نص سرياني نشره بروك BROOKS في

Zeitchrift der Deutscher Morger Gesellschaft, t. 51, p. 581.

عام ١٨٩٦ . ما يشير الى ان الخليفة الوليد بن عبدالملك كان قد أقام في بداية القرن الثامن للميلاد في مقاطعة بعلبك مدينة سميت IN - GERO وهذه التسمية ذاتها تقارب ما أشار اليه وشخصه كليرمون – كانو CLERMONT-GANNEAU في :

Recueil d'Archéologie Orientale, III, p. 90

بالتسمية التي تطلق حالياً على قرية عنجار (وسابقاً عين الجار) وعلى عين الماء الجارية بالقرب منها .

١٥ – يرجعها موريس شهاب الى عام ٨٦٤ . انظر :

Ars Orientalis, Vol. V, 1963, p. 17.

١٦ – بينما يرى موريس شهاب ان قصور عنجار قد اوجدت من قبل عبدالملك او خليفته الوليد (Ibid . p. 20)

١٧ – المصدر السابق . بروك ص ٥٨٢ .

١٨ – نفس المصدر . Loc. cit.

١٩ – G.L.Bell., Translations of the Greek Aphrodito Papyri, Der Islam.IV (1913), no. 1434.

٢٠ – وهنا يشير حافظ الى أن بابل هذه تقع بالقرب من القاهرة . ولكننا لانعلم على وجه التحديد ان كان المقصود في الوثيقة بابل القاهرة أم بابل بلاد الرافدين

٢١ – وهناك اشارة مهمة عند كليرمونت – كانو في المصدر السابق ص ٩٠ . الى ان العرب قد ضربوا نقودا عليها كتابات دون رسوم تشير الى انها ضربت في جيرو Gero (في مقاطعة بعلبك) من قبل الخليفة الوليد كما تشير المصادر السريانية الى ذلك .

٢٢ – تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٨ ومابعدها . وج ٢ ص ١٨٧٦–١٨٧٩ (ط . ليدن).

٢٣ – كليرمونت – كانو في

Recueil d'Archéologie Orientale, Vol.3, p.252.

وجدير بالاشارة أن ياقوت الحموي يشير في معجم بلدانه . تحت مادة « عين الجار » الى اقلاع سفينة نوح منها .

٢٤ – انظر مثلاً ابن الجوزي في مرآة الزمان في تاريخ الاعيان Passim .

٢٥ – انظر كليرمون – كانو ص ٢٥٢ هامش رقم –١–

٢٦ – Les Ruines Omeyyades d'Andjar, B.M.B., 3, p. 7.

٢٧ – Histoire des Croisades. Or.. 3, p.570.

٢٨ – للتفاصيل عن هذا الحصن أنظر R. DUSSAUD.

La Topographie Historque de La Syrie Antique, p. 400 (1907 , Paris).

٢٩ – الوصف الذي يلي هو آخر وادق وصف لمباني عنجار جاء نتيجة لاعمال الحفريات الموسعة والكاملة التي انجزها الامير موريس شهاب خلال ما يقرب من ثلاثين سنة من العمل المتقطع احياناً بسبب ظروف عديدة مرت بها الاعمال .

٣٠ – أن هذه الأرقام هي أصح المقاييس وتقارب الحقيقة بعد ان رأينا ستريكا الذي اعطاها ابعاداً اطوالها ١٠٠٠×٤٠٠م وهي مقاييس مبالغ فيها كثيراً . انظر :

Origini Primi Suiluppi Dell' Architectura Musulmana, Venezia 1968, p. 119;

كما أن المقاييس التي أشار اليها سوفاجي استنادا الى بيرس (Op. Cit.. p.7) وهي ١٧٥ متراً لكل من اضلاع السور . وهذا بدوره رقم مصغر كثيراً بالنسبة للواقع .

٣١ – اربعة ابراج للاركان . ثمانية ابراج للابواب لاربعة (اثنان على طرفي مدخل كل باب . ثمانية وعشرون برجاً لجدران السور على امتداده) .

٣٢ – الاشكال

٣٣- ويجدر هنا الاشارة الى الأهمية الاستثنائية التي اعطاها سوقاجي لمدينة بغداد المدورة في مقالته اعلاه ص ٩ (انظر هامش رقم ١٧) . اذ يقول : ... « ان ما سمحت به نتائج دراسات السيد PEARSON الموقعية على اطلال عنجار تسهل لنا وضع أسس منطقية للمقارنة بين المخطط العام لهذه الاطلال مع ما نعرفه عن مخطط مدينة بغداد المدورة (مدينة السلام) . المدينة التي ملأت الدنيا في حينه بسمعتها وعظمتها ومجدها رغم انها بحجم يفوق الى حد كبير حجم اطلال عنجار . وأنها اليوم أثر بعد عين الاّ ان الوصف الكامل لها ولتفاصيل اسوارها ومرافقها فضلاً عن دقة الأرقام المعطاة عن ابعادها تمكننا من اجراء مقارنتنا هذه . » ونرى في المخططين التقريبيين اللذين في مقالته آنفة الذكر (شكل -١-و-٣-) مبينا التشابه القائم بين مافي مركز بغداد المدورة من قصر باب الذهب والمسجد الجامع الملصق به محاطان بشارع واسع وهائل وبرواق ذي أعمدة يشكل جانبه الخارجي الرواق الأكبر الموازي لسور المدينة المدور . وهذان يحصران بينهما مساكن وقصور قواد الجيش واتباع الخليفة . مقسمة في اربعة مجاميع (أو أحياء) يفصل بينها الشارع العام المؤدي الى أحد الأبواب الأربعة للمدينة والتي يقع كل واحد منها باتجاه واحد من الجهات الجغرافية الأربع . ويرى سوقاجي ان هذه المميزات تطابق تماماً ما في مخطط اطلال عنجار والفارق الوحيد بينهما هو أن بغداد ذات مساحة هائلة (نصف قطرها ١٣٨٠ م) قياساً الى مساحة عنجار البالغة ١١٤٨٠٠ م٢ فضلاً عن أن الأولى مدورة والثانية مستطيلة . عليه فبغداد المدورة هي تخطيط تقليدي لمدينة أموية لكنها خطت بمقياس بالغ الكبر والضخامة مع مراعاة المبادىء والأساليب المتبعة في الانجاز . وما اختيار الخليفة للشكل الدائري في التخطيط الاّ رغبة في جعلها نادرة المثيل فحسب . وعليه . ان من يريد البحث عن اصل المخطط المدور الذي تأثر به بناة بغداد في اصول حثية وآشورية وفرثية لبعيدون عن المنطق العلمي ، لأن مدينة المنصور ماهي الاّ نموذج متطور للمدن الأموية في كل شيء . اذ لم يأخذ معماريو هذه المدينة افكارهم من وثائق آثارية بل انهم اقتبسوها عن نموذج حي عايشوه في ذلك العصر » .

٣٤- انظر عنها Talbot Rice, Islamic Art, p.19, London, 1965.

٣٥- قارن ذلك بما في الاخيضر من بيوت والتشابه في التوزيع والتقسيم .

٣٦- انظر عن نماذج هذه القصور وتخطيطاتها كريسويل في مجلده الأول من كتاب « العمارة الاسلامية الأولى » E.M.A . في أماكن متفرقة . وكذلك جان سوقاجي في :

Chateaux Umayyades de Syir, Revue des Etude Islamiques, Annee 1967, pp.52.

وكذلك فنسنزو ستريكا في :

Origin e Primi Sviluppi Dell, Architectura Civile Musulmana, Venezia 1968, Passim.

٣٧- الوصف اعلاه مستند كليا الى مخطط البناء فقط .

٣٨- وهو يذكرنا في تفاصيله بمخطط حمام قصير عمرة وحمام الصرخ . ولكن الفارق هو أن الحجرة الكبرى الـ Caldarium لا تتناظر مع مافي هذين الحمامين حيث ترتبط بالغرف الثلاث الصغرى فيها وبشكل عام يمكن القول أن مخطط قصير عمرة أقرب الى مخطط حمامي عنجار منه الى حمام قصر الحير الغربي .

* * *